يقول نَصْر بن محمد الحنفي: [من الكامل]

مَنْ قال أهل الشَّام قومٌ كلُّهمْ بَقَرٌ فليسَ عليه فيه جُناحُ
لو لم يصحَّ مقالُهم فيه لما أضحى يسوسُ أمورَهُمْ فلاَّحُ

[قلت: ما كان ابن جرير فلاحاً، وعامة الوزراء كانوا فلاحين مثل ابن هبيرة وغيره][1].

أبو عبد الله، البِرْزالي، المحدِّث[2]

توفي بحماة رابع وعشرين رمضان، ودُفِنَ بها.

السَّنة السَّابعة والثَّلاثون وست مئة

فيها هَجَمَ الصَّالح إسماعيل دمشق، ومعه أسد الدين صاحب حمص يوم الثّلاثاء سابع وعشرين صفر، وكان الصَّالح أيوب مقيماً بنابلس، وإسماعيل ببَعْلَبَك يكاتبه، ويَعِدُه أَنَّه واصل إلى خِدْمته، وكان أسدُ الدِّين قد جاء إلى الزراعة، واجتمع بإسماعيل، واتَّفقا على أيوب، وأن تكون البلاد بينهما مناصفة، وكان ابن إسماعيل وابن يغمور بنابُلُس كما ذكرنا، وكان عِزُّ الدِّين أيبك مقيماً بصَرْخد، لم ينزل إلى خدمة أيوب، واتَّفق مع إسماعيل على أيوب، وكتب إسماعيل [إلى أيوب][1] يطلب ولده ليصل إليه، ويقيم عوضه ببعلبك. فبعَثَ إليه به، وكل هذا وأم عامر نائمة، وكان ذلك بترتيب [السَّامري][1] أبي الحسن ابن غزال المتطبّب؛ وزير إسماعيل، وكان الصَّالح أيوب قد سيَّر سعدَ الدِّين الحكيم من نابُلُس، ومعه الطُّيور إلى بَعْلَبَك يعرِّفه أخبار الصَّالح إسماعيل كل وقت ومسيره، فكان سعد الدين يكتُبُ الكُتُبَ، ويربطها على جناح الطَّيْر، فيسرق ابن غزال الطَّيْر، ويكتُبُ إلى أيوب بما يريد، فاطمأنَّ إليهم، [وما كان عنده دهاء،][1] وكان سليم الصَّدْر، وإسماعيل يبعث الدَّراهم والخِلَع إلى دار ابنِ سلام ـ على ما قالوا ـ تفرَّق في المقدَّمين، وخرج إسماعيل من بَعْلَبَك بالفارس

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) هو أبو عبد الله، محمد بن يوسف، وله ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٥١٤ ـ ٥١٥، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤٨-٤٩، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

والرَّاجل على أنه متوجِّه إلى نابُلُس على بانياس، فبات بالمجدل، وكتب بطاقةً إلى أيوب يخبره بوصوله إليه، وقام وقت السَّحَر، وقَصَدَ دمشق، ووصل عقبة دمر، ووقف، وجاء صاحب حِمْص من وادي منين، وقصدوا إلى باب الفراديس، ففتحوه في ساعةٍ واحدة، وما كان عليه أحد، ودخلوا، فنزل الصَّالح في داره بدرب الشعارين، وأول من دخل عليه، ورَقَصَ بين يديه وهنَّأه، وقال: إلى بيتك جِئْتَ نجمُ الدِّين بنُ سلام، ونزل صاحبُ حمص في داره، وأصبحوا يوم الأربعاء ثامن وعشرين صفر، فزحفوا على القلعة، ونقبوها من ناحية باب الفرج، وهتكوا حُرْمتها، ودخلوها، وبها المغيث عمرُ بنُ الصَّالح أيوب، فاعتقله إسماعيل في بُرْج، واستولى على ما في القلعة، ولم يكن بها ذخائر ولا عُدَّة، [وكان الصالح أيوب قد ركن إلى أيمان إسماعيل وعهوده ومواثيقه، وما ظن أنه ينكث أيمانه، ولا يفكر في عواقبه، وضيَّع أيوب الحَزْم][1]، فبلغ الصالح أيوب ما جرى، وقيل له: لم تؤخذ القلعة، فخلع على عمَّيْه مجير الدِّين وتقيِّ الدِّين والركين وألتميش وغيرهم، وأعطاهم الأموال، وقال: ما الرأي؟ قالوا: نسوق إلى دمشق قبل أن تؤخذ القلعة. فخرجوا من نابلُس، ونزلوا القصير، وبلغهم أخذ القلعة، [فساروا][1] عن أيوب بأسرهم، وخافوا على [أثقالهم و][1] أولادهم وأهلهم بدمشق، وكان الفساد قد لعب فيهم، فرحلوا إلى دمشق، وبقي أيوب في مماليكه وغِلْمانه، ومعه جاريته أُمُّ خليل، فرحل من القصير يريد نابُلُس على طريق جينين، وطمع فيه أهلُ الغور والقبائل،وكان مقدَّمهم شيخٌ جاهل يقال له تبل من أهل بَيْسان ـ قد سَفَك الدِّماء، والتقتِ الجيوشُ بسببه ـ [ورأيته بمصر بعدما تملكها أيوب، وقد عفا عنه، وأحسن إليه][1] ـ فتَّبعوه، وما زالوا وراءه وهو يحمل عليهم، فيفرِّق جَمْعهم، وأخذوا بعضَ ثَقَلَه، ووصل إلى سَبَسْطية، فنزل عليها، وكان الوزيري قد عاد إلى نابُلُس، فأرسل إليه يقول: قد مضى ما مضى، وما زالت الملوكُ كذا، وقد جئتُ مستجيراً بابن عمِّي. ونَزَلَ في الدَّار بنابُلُس، واتَّفق عَوْدُ النَّاصر من مِصْر على غير رضى، فوصل [إلى][1] الكرك، وكَتَبَ الوزيريُّ إليه يخبره الخبر، فبعث النَّاصرُ عمادَ الدِّين بن موسك، والظَّهير بن سُنْقُر الحلبي في ثلاث مئة

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

فارس إلى نابُلُس، فركب أيوب، والتقاهم، فخدموه، وقالوا: طَيِّبْ قلبك، إلى بيتك جِئْتَ. فقال: لا ينظر ابنُ عمي إلى ما فعلت، فما زالت الملوك كذا، وقد جئتُ إليه أستجير به. فقالوا: قد أجارك، وما عليك بأس. وأقاموا أياماً حول الدَّار، فلما كان في بعض الليالي ضربوا بوق النَّفير، وقيل: جاءتِ الفرنج. فركب النَّاس، ومماليكُ الصَّالح، ووصلوا إلى سَبَسْطية، وجاء عماد الدين والظهير والعسكر إلى الدَّار، ودخل عليه الظَّهير، وقال: تطلع إلى الكَرَك، فإنَّ ابنَ عَمِّك له بك اجتماع. وأخذ سيفه، [(١)وبلغني] أنَّ جاريته كانت حاملاً، فأسقطتْ، فأخذوه، وتوجَّهوا إلى الكَرَك.

قال المصنِّف رحمه الله: ولما اجتمعتُ به في سنة تسع وثلاثين بالقاهرة حكى لي صورةَ الحال، قال: أركبوني بغلةً بغير مهماز ولا مقرعة، وساروا بي إلى البرية في ثلاثة أيام، والله ما كلَّمْتُ أحداً منهم كلمة، ولا أكلتُ لهم طعاماً حتى جاءني خطيبُ البرية، ومعه ثردة عليها دجاجة، فأكلتُ منها، وأقاموا بي في البرية يومين، ولم أعلم أيش كان المقصود، وإذا بهم يريدوا يأخذوا طالعاً نحساً، يقتضي أنني لا أخرج من الكَرَك، ثم أدخلوني الكَرَك ليلاً على الطَّالع الذي كان سبب سعادتي ونحوسهم، ووكل بي مملوكاً له فَظًّا غليظاً، يقال له: زريق، فكان أَضَرَّ عليَّ مِنْ كلِّ ما جرى، فأقمت عندهم إلى رمضان؛ سبعة أشهر، ولقد كان عندي خادمٌ صغير، فاتَّفق أَنَّه أكل ليلة كثيراً، فأتخم، وبال على البسط، فأخذت البساط بيدي والخادم، وقمتُ من الإيوان إلى قريب الدِّهْليز، وفي الدِّهْليز ثمانون رجلاً يحفظوني، وقلتُ: يا مقدَّمين، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، بالله انزلوا به إلى الوادي، واغسلوه. فَنَفَر فيَّ زريق، وقال: أيش جاء بك إلى هاهنا. وصاحوا عليَّ، فعدتُ إلى موضعي. وحكى لي أشياء من هذا الجنس.

ثم إنَّ الوزيريَّ أطلع خزائنه وخيله وأسبابه إلى الصَّلْت، وأقام مماليكه بنابُلُس، ووصل العلاء بن النَّابلسي من مِصْر من عند العادل إلى النَّاصر يطلب الصَّالح، ويعطيه مئة ألف دينار، فما أجاب، وكاتبه إسماعيل وصاحب حِمْص في هذا المعنى، فما أجاب، ولما طال مقامه أشار عمادُ الدِّين بنُ موسك وابن قليج والظَّهير على النَّاصر بالاتفاق معه وإخراجه، فتحالفا واتَّفقا، وأخرجه في آخر رمضان.

---

(١) في (ت): وقيل إن جاريته، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

وقال [لي][1] الصَّالح لما أخذ مِصْر: حَلَّفني على شيء ما تقدر عليه ملوكُ الأرض؛ وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والمَوْصل وديار بكر وغيرها، ونصف ديار مِصْر، ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثِّياب وغيرها. فحلفتُ من تحت القَهْر والسَّيف.

ولما عَلِمَ العادلُ والصَّالح إسماعيل والملوك بإخراجه من الحبس رموا النَّاصر عن قوسٍ واحدة، وعزموا على قَصْده، واتَّفقوا عليه، وأَوَّل من برز العادل إلى بِلْبيس بالعساكر يريد الشَّام، واختلف العسكر عليه، وقبضوه، وأرسلوا إلى الصَّالح يعرفونه، ويسألونه الإسراع، فسار، ومعه الملك النَّاصر، وجماعة من أمرائه ابن موسك وغيره، وكان وصول الصَّالح إلى بِلْبيس يوم الأحد رابع عشرين ذي القَعْدة، فنزل في خيمة العادل، والعادل معتقل في خركاة، وكان [خالي][1] محيي الدين ابن الجوزي بمصر قد خلع على العادل والفلك بن المسيري، فأُخبر بمسكه، فأخرج إلى بلبيس وقد خاف.

قال المصنف رحمه الله: وحكى لي الصَّالح واقعاتٍ جَرَتْ في مسيره إلى مِصْر، منها أَنَّه قال: [والله][1] ما قصدتُ بمجيء النَّاصر معي إلا خوفاً أَنْ تكون معموله عليّ، ومنذ فارقنا غَزَّة تغيَّر عليَّ، ولا شك أَنَّ بعضَ أعدائي أطمعه في الملك، فذكر لي جماعةٌ من مماليكي أَنَّه تحدَّث معهم في قَتْلي.

قال: ومنها أَنَّه لما أخرجني نَدِمَ وعَزَمَ على حبسي، فرميتُ روحي على ابن قليج، فقال: ما كان قَصْدُه إلا أَنْ يتوجَّه إلى دمشق أولاً، فإذا أخذناها عُدْنا إلى مِصْر.

قال: ومنها أَنَّ ليلة وصلنا [إلى][1] بلبيس شَرِبَ، وشَطَحَ إلى العادل، فخرج من الخركاة، وقَبَّل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيتَ ما أشرتُ عليك، ولم تقبل مني؟ فقال: يا خوند، التوبة. فقال: طَيِّبْ قلبك، السَّاعة أطلقك، [ثم قال الصَّالح][1]: وجاء، فدخل علينا الخيمة، ووقف، فقلتُ: بسم الله، اجلسْ، فقال:

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

ما أجلس حتى تطلق العادل. فقلتُ: اقعد، وهو يكرِّرُ الحديث. فسكت، ولو أطلقته لضرب رقابنا كلَّنا، ونام، فما صدَّقتُ بنومه، وقمت في باقي الليل، أخذت العادل في مِحَفَّة، ودخلتُ به القاهرة، ولما دخلنا القاهرة بعثتُ إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليَّ مع غِلْماني. [وذكر قول الناصر له: بُسْ يدي ورجلي. فقلت: ما أظنه يبدو منه هذا، وهو رجل عاقل. فأقسم بالله إن هذا وقع منه.

فصل: وفيها أخذ بدر الدين لؤلؤ سنجار من الجواد بموافقة من أهلها لسوء سيرته، فإنه صادرهم، وأخذ أموالهم، وخرج يتصيد، ولجَّجَ في البرية، فبعثوا إلى بدر الدين، فجاء، ففتحوا له الأبواب، ومضى الجواد إلى عانة، فأقام بها، ثم باعها للخليفة.

وفي ربيع الأول ذكر الرفيع القاضي الدرس في مدرسة ست الشام، واسم الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي، وكنيته أبو حامد.

وفي ربيع الأول أُنزل الكامل من القلعة إلى تربته بجامع دمشق.

وولي الخطابة العز عبد العزيز بن عبد السلام بجامع دمشق في ربيع الآخر.

وخطب الصالح إسماعيل لصاحب الروم بجامع دمشق وغيره.

وفيها توفي

القاضي شمس الدين الخُوَيي[1]

واسمه أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، أبو العباس.

كان فاضلاً في كل فن، فقيهاً، مناظراً، عالماً بعلم الكلام وغيره، وكان لطيفاً، حسن العشرة، كريم الأخلاق، طيب النفس، عفيفاً، وكانت وفاته يوم السبت سابع شعبان، ودفن بقاسيون، وكان قد تيقن الموت لأنه علق به مرض السل، وكان متواضعاً، يمضي إلى جامع دمشق، ويجلس بين يدي محمود الضرير عند مقصورة الخطابة، فيقرأ عليه القرآن، ومات مديوناً.

---

(١) له ترجمة في «التكملة»: للمنذري ٣/ ٥٣٧، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٥٢-٥٣، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

ثم ولي الرَّفيع بعده قضاء القضاة، والتدريس بالعادلية.][1]

أُرْتُق[2]

ناصر الدين، صاحب ماردين، [قد ذكرنا قتله للنظام ولؤلؤ، واستيلاءه على ماردين، وطلوع المعظم إليه، واتفاقه معه، ومصاهرته إياه، و][1] كان المعظَّم قد تزوَّج أُخته، وهي التي بنت المدرسة والتربة عند الجسر الأبيض بقاسيون، ولم يقدَّر لها أن تدفن بها، لأنها انتقلت لما مات المعظم إلى ماردين، فتوفيت بها.

وكان ناصر الدين شجاعاً، شهماً، جَوَاداً، ما قصده قاصد وخيَّبه، وقصده الأشرف غير مرة ولم يلتفت، وكانت وفاته بماردين؛ قتله ولده خنقاً وهو سكران، ثم بعث إلى أبيه[3] وكان محبوساً، فجاء إلى مارِدِين، فملكها.

شيركوه بن محمد[4]

ابن [أسد الدين][1] شيركوه بن شاذي، الملك المجاهد، أسد الدين، صاحب حمص.

أعطاه صلاح الدِّين ـ رحمه الله ـ حمص عند موت والده محمد سنة إحدى وثمانين [وخمس مئة][1]، وأقام بها إلى هذه السنة [ستاً وخمسين سنة، وكان شجاعاً شهماً مقداماً، يباشر الحرب بنفسه،][1] وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب.

أما من [ناحية][1] الفرنج، فإنه بنى الأبراج على مخائض العاصي، وركز فيها

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «الحوادث الجامعة»: ٦١ـ٦٢، و«تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٣٦هـ)، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٤٦، و«العبر»: ٥/ ١٤٨ ـ ١٤٩، و«شذرات الذهب»: ٥/ ١٨٠، وعندهم وفاته سنة (٦٣٦هـ)، ثم أعاد الذهبي ترجمته في «تاريخ الإسلام» (وفيات سنة ٦٣٧هـ) وكذلك ذكره في السنتين ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٣١٤، ٣١٥.

(٣) كذا قال، وعبارة الذهبي في «السير»: ٢٣/ ٤٦ أوضح، فقد قال: «قتله غلمانه بمواطأة ابن ابنه ألبي بن غازي بن أرتق... فلما قتلوه أخرجوا غازياً وملكوه».

(٤) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٥٣٥ - ٥٣٦، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٥١-٥٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

الرِّجال والطُّيور، فكان الفرنج إذا خرجوا أطلق الرِّجالُ الطيورَ، فيخرج بنفسه فيسبق الفرنج إلى المخاضة، فيقتل ويأسر، ويردُّ القافلة، وما أخذوا منها [شيئاً][1]، وكذا كان يفعل بالعرب من ناحية البرية، ويركب بنفسه ويقاتل، ولم يزل كذلك إلى أن توفي [وكانت بلاده طاهرة من الخمور والخواطئ والمكوس، فكانت تعبر على بلده قوافل الدنيا، فلا يتعرض لها، وكان بنو أيوب يخافونه، لأن كان يرى أنه أحق بالملك منهم لأجل جده أسد الدين، وفتحه مصر. وكان الكامل قد استوحش منه، واتهمه بأنه هو الذي أوقع بينه وبين الأشرف، فلما ملك الكامل دمشق، ونزل جوسق أبيه اجتمعنا، فقال لي: ما أفسد أحوالنا إلا صاحب حمص، ووالله لأمحونَّ آثاره. فقلت: ابن عم وقريب، وهو خير من الغريب. وطلب منه مالاً عظيماً، فبعث أسد الدِّين نساءه إلى دمشق، يسألن الكامل فيه، فما أجاب، وقال: لابد من المال. وأيقن أسد الدين بوزن المال، فحكى لي جماعة أنه كان في قلعة حمص قاعداً يزن المال، ويعبيه في الأكياس، وإذا بطاقة من دمشق قد وصلت على جناح طائر، فأخذها البراج، ودخل بها يقرؤها، وفيها وفاة الكامل، فردَّ المال إلى الخزائن، وجاء بعد ذلك إلى دمشق، وجلس عند قبر الكامل، وتصرف في أمواله وخيله ودولته.

وكان أسد الدين ديِّناً، عاقلاً، يعاشر العلماء والفقهاء، جواداً، متصدِّقاً، قالوا: إلا أنه كان إذا حبس إنساناً أقام مدة محبوساً، وكان قد منع النساء أن يخرجن من باب حمص أيام ولايته، وكانت وفاته][1] بحمص يوم الثُّلاثاء العشرين من رجب، ودفن بها.

يعقوب الخياط[2]

كان يسكن مغارة الجوع بقاسيون، وكان شيخاً صالحاً، لقي المشايخ، وعاشر الرِّجال، وعادل خُضْر بن صلاح الدين لما سافر إلى الحج، ورَدُّوه من الصَّفراء إلى دمشق، ورجع يعقوب [معه][1]، ولم يَحُجَّ.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٣١٦.

ومات ليعقوب ولدٌ اسمه صالح قد بلغ خمساً وعشرين سنة، وكان ولداً حسناً، فخرج يعقوب في جِنازته، ولم يبكِ عليه، [والناس يبكون، وهو صابرٌ محتسب،][1] وكان يحكي [لي][1] عن مغارة الجوع العجائب، وأنه يرى فيها الرجال في الليل، وأن باب المغارة يفتح ويخرج منه أشخاصٌ عجيبة، وكانت وفاته بقاسيون، ودفن عند المغارة.

السنة الثامنة والثلاثون وست مئة

فيها سَلَّم الصَّالح إسماعيل الشَّقيف لصاحب صيدا، وعزل ابن عبد السَّلام من الخطابة وحبسه، وحبس أيضاً أبا عمرو بن الحاجب، لأنَّهما أنكرا عليه فِعْلَه، فحبسهما مُدَّة، ثم أطلقهما، وأمرهما بملازمة بيوتهما، وولَّى العمادَ ابنَ خطيب بيت الآبار الخطابة.

وفيها سَلَّم الحافظ قلعة جَعْبر إلى الحلبيين، وعوَّضوه أعزاز، وكان قد ضربه الفالج، وكان ولده قد مضى إلى الخُوارَزْمية يطلب منهم عسكراً ليحاصره، فخاف، وجاء إلى حلب.

وفيها ظهر بالرُّوم رجلٌ تركماني يقال له: البابا، وادَّعى النُّبوة، وكان يقول: قولوا: لا إله إلا الله، البابا وليُّ الله. واجتمع إليه خَلْقٌ عظيم، فجهَّز إليهم صاحب الرُّوم جيشاً، والتقوا، فقتل منهم أربعة آلاف، وقتلوا البابا.

وفيها وصل رسول خاقان ملك التَّتر إلى شهاب الدين غازي بميَّافارِقِين، ومعه كتابٌ إليه وإلى ملوك الإسلام يأمرهم بالدُّخول في طاعته، وكان في عنوان الكتاب: من نائبِ رَبِّ السَّماء، ماسح وَجْه الأرض، ملك الشَّرْق والغرب قاقان، وقال لشهاب الدِّين: وقد جعلك سلحداره، وأمرك أن تخرب أسوار بلادك جميعها. فقال له شهاب الدين: أنا من جُمْلة الملوك، وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الرُّوم والشَّام ومِصْر، فتوجَّه إليهم، فمهما فعلوه فعلته.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).